

الباب الثاني

الموقف السياسي الداخلي في عهد السلطان

برقوق وابنه فرج

obeikandi.com

أولاً: حكومة الظاهر برقوق

(٧٨٤ - ٨٠١ هـ = ١٣٨٢ - ١٣٩٨ م)

تولى برقوق عرش مصر، وصار بذلك أول سلاطين دولة المماليك البرجية، وقد تصرف برقوق عند تشكيل حكومته الجديدة تصرفاً حكيماً، فلم يبدأ حكمه باضطهاد كبار الأمراء الترك، وإنما عمل على اشتراكهم معه في إدارة شئون البلاد وخاصة من عاونوه في الوصول إلى السلطنة كسودون الفخرى التركى، حيث اختاره نائباً للسلطنة في مصر^(١)، كما أقر يلبغا الناصرى في نيابة حلب^(٢).

على أن السلطان برقوق بعد تشكيله للحكومة الجديدة ركز السلطة كلها في يده، ورغم أن الوظائف الكبرى كالأتابكية وغيرها كانت بيد أعوانه وأنصاره من الأمراء الجراكسة، إلا أنه جعل مرجع الأمراء عامة إليه وكما هو متبع في العصر المملوكى من عرض الجنود بحضرة السلطان، وصى الوسيلة التى يلجأ إليها ولى الأمر من آن لآخر لعزل المشكوك في ولائهم له، فقد لجأ برقوق إلى هذه السياسة ليتخلص من طائفة الأشرفية — ممالك الأشرف شعبان — مبراً هذا الإجراء من جانبهم بأن «هؤلاء خونة قد خانوا أستاذهم الملك الأشرف، وأعانوا على قتله بشيء يسير أخذوه من المال، بعد ما عاشوا في نعمته دهراً طويلاً، فلا خير فيهم»^(٣).

والواقع أن هذا الإجراء من جانب السلطان برقوق لم يكن الهدف منه سوى إبعاد المماليك الأشرفية وقطع مرتباتهم ليحل محلهم مماليكه الذين اشتراهم ونشأهم على الولاء له^(٤).

(١) ابن دقماق: الجوهر الثمين جـ ٢ ورقة ١٨٠، ابن الصيرفى: نزهة النفوس جـ ١ ص ٤٧.

(٢) أبو المحاسن: النجوم الظاهرة جـ ١١ ص ٢٣١.

(٣) المقرئى: السلوك جـ ٣ القسم الثانى ص ٤٧٩.

(٤) المقرئى: نفس المصدر والجزء والصفحة، ابن الصيرفى: نزهة النفوس جـ ١ ص ٤٩ - ٥٠.

على أن هذا النهج الذى انتهجه برقوق وهو شغل الوظائف الحكومية الهامة بأتباعه، وترقيته لكثير من مماليكه، وحرمان المماليك الأشرفية من أرزاقهم، وإحلال بنى جنسه مكانهم، أدى إلى تخوف الأمراء الأشرفية، كما جعلهم يفتنون إلى خطورة هذه السياسة التى ستؤدى حتما إلى إبعادهم فى وقت قريب.

وهو الأمر الذى جعل الأمير أَلْطُنْبُغَا السلطان الأشرفى نائب أْبْلَسْتَيْن^(١) يعلن الثورة فى ذى القعدة سنة ٧٨٤هـ / ١٣٨٢م، قائلا: «لا أكون فى دولة حاكمها جركسى»^(٢).

غير أن هذه الثورة لم يقدر لها النجاح، وفر أَلْطُنْبُغَا على أثرها إلى بلاد التار^(٣).

ولم يكبد بمضى على هذه الثورة بضعة شهور حتى فوجئ السلطان برقوق فى رجب سنة ٧٨٥هـ / ١٣٨٣م بمؤامرة جديدة، دبرها بعض أمراء الترك الأشرفية لاغتياله، ولإجلاس الخليفة العباسى المتوكل على العرش^(٤).

وقدر لهذه المؤامرة أن تفشل حيث اكتشفها برقوق قبل أن يشرع أصحابها فى تنفيذها، ثم حكم على أحد المؤتمرين بالموت، واكتفى بخلع الخليفة وسجنه بقلعة الجبل^(٥).

وكان طبيعياً أن يتعرض مثيرو الفتن من المماليك الأشرفية للنفى والتشريد من جانب السلطان برقوق، بعد أن ثبت له تدبيرهم لقلب نظام الحكم^(٦).

وفى الوقت نفسه كشف اليلبغاوية عن نواياهم تجاه برقوق، بوقوفهم من أعداء الدولة موقفا يثير الشكوك، فقد حدث أن حضر سُولِي بن دُلْعَادِر التركمانى

(١) أبلستين: مدينة مشهورة من بلاد الروم، ياقوت: معجم البلدان ج ١ ص ٨٦.

(٢) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة ج ١١ ص ٢٢٩.

(٣) المقرئى: السلوك ج ٣ القسم الثانى ص ٤٨٢، ابن الصيرفى: نزهة النفوس ج ١ ص ٥٤.

(٤) ابن خلدون: العبر ج ٥ ص ٤٧٥، السيوطى: حسن المحاضرة ج ٢ ص ٨٣ - ٨٤.

(٥) ابن دقماق: الجواهر الثمين ج ٢ ورقة ١٨٠، ابن الصيرفى: نزهة النفوس ج ١ ص ٧١.

(٦) ابن الصيرفى: نزهة النفوس ج ١ ص ٧٩.

إلى حلب طائعا، فأنزله عنده يلبغا الناصري نائب حلب، وكاتب السلطان برقوق بن أمره، فأرسل برقوق أوامره إلى يلبغا بالقبض على سولى وإرساله إلى القاهرة مقيدا، ولكن يلبغا بتدبير منه مكن سولى من الهرب ليلا^(١).

رُصِلت هذه الأنباء إلى السلطان برقوق فاتهم يلبغا بالتواطؤ مع أعدائه^(٢) وبادر بالقبض عليه بعد أن عزله عن نيابة حلب ثم أرسله إلى السجن بالإسكندرية في رجب سنة ٧٨٧^(٣).

وصاحب ذلك نشاط المماليك الأشرفية من جديد في مؤامراتهم الهادفة إلى قلب نظام الحكم، فحربوا حظهم مرة أخرى في أوائل سنة ٧٨٨هـ، واشترك في هذه المؤامرة أجد كبار رجال القصر وقتئذ وهو تَمْرُبُغَا الحاحب، ولكن المؤامرة اكتشفت قبل تنفيذها وانتهى أمر مدبريها بالقتل، ثم تتبع السلطان المماليك الأشرفية فشردهم قتلا ونفيا بعد أن تكررت محاولاتهم لإعادة أحفاد الناصر محمد ابن قلاوون إلى العرش^(٤).

والواقع أن السياسة العنيفة التي اتبعتها برقوق إزاء المماليك الأشرفية، أثارت كبارهم خارج مصر، فأعلن تَمْرُبُغَا الأشرفي نائب مَلَطِيَّة المعروف بِمَنْطَاش الثورة على السلطان في شوال سنة ٧٨٩هـ / ١٣٨٧م وانضم إليه المماليك الأشرفية بالمنفى^(٥).

ورغم خطورة ثورة منطاش فإن السلطان برقوق لم يعرها بالاهتمام اللازم، واكتفى في بداية الأمر بإطلاق سراح يلبغا الناصري واستدعاه لمقابلته، ولما مثل

(١) المقرئى: السلوك جـ ٣ القسم الثاني ص ٥٣١، ابن حجر: إنباء الغمر جـ ١ ص ٣٠٢.

(٢) ابن إياس: بدائع الزهور جـ ١ القسم الثاني ص ٣٦١.

(٣) ابن خلدون: العبر جـ ٥ ص ٤٧٦، ابن الصيرفي: نزهة النفوس جـ ١ ص ١١٩.

(٤) ابن حجر: إنباء الغمر جـ ١ ص ٣١٣، وليم مويز: دولة المماليك ص ١١٢.

(٥) ابن حجر: الدرر الكامنة جـ ٥ ص ١٣٤ - ١٣٥، السخاوى: الذيل التام على دول الإسلام

حوادث سنة ٧٨٩هـ.

بين يديه بالغ السلطان في إكرامه، فأنعم عليه بمائة فرس، وبالكثير من المال والثياب والسلاح، وقرر إعادته نائباً لحلب من جديد^(١).

ولم يكن برقوق يهدف من وراء إعادة يلبغا إلى منصبه من جديد، سوى تأييد اليلبغاوية له بعد العفو عن زعيمهم، وأملاً في إثارتهم ضد الأشرفية.

غير أن تطور الأحداث أثبت عكس ذلك، إذ سرعان ما أعلن يلبغا الثورة هو الآخر في طائفة من بني جنسه، وانضم إليه منطاش الأشرفي وغيره من الأشرفية^(٢).

على أن الأمر الجدير بالملاحظة أن يلبغا كان يعد العدة للثورة على السلطان منذ عودته إلى نيابة حلب وما يؤكد ذلك أن السلطان برقوق حين أدرك ما بيته يلبغا من الوثوب عليه، حاول استدراجه ليتخلص منه نهائياً، فبعث إليه بمهدية حوت عدة من الخيول وبعض الأقمشة النادرة^(٣)، واستدعاه ليحضر إلى القاهرة، غير أن نائب حلب فطن لهذه الحيلة، واعتذر عن الحضور بحجة انشغاله في إخماد ثورة التركمان ومنطاش^(٤).

ومهما يكن من أمر فقد انضم إلى يلبغا سائر من كان في المنفى من المالكي، وقبضوا على الأمراء الموالين للسلطان^(٥).

وبعد أن استوثق يلبغا من قوته ومن مؤيديه، استولى على الشام بأسره^(٦)، ثم سار إلى القاهرة على رأس جيش كبير، وساء موقف برقوق حين أحس بالغلبة «لانفلال جمهور العسكر عنه بعد أن أنفق فيهم الأموال الجزيلة» الأمر الذي جعله يضطر إلى الفرار من قلعة الجبل، ثم ظل محتفياً حتى قبض عليه يلبغا الناصري

(١) ابن دقماق: الجوهر الثمين جـ ٢ ورقة ١٨٢، ابن الصرقى: نزهة النفوس جـ ١ ص ١٥٨.
(٢) ابن دقماق: الجوهر الثمين جـ ٢ ورقة ١٨٢، السخاوى: الذيل التام على دول الإسلام حوادث سنة ٧٩١هـ.

(٣) المقرئى: السلوك جـ ٣ القسم الثاني ص ٥٩٠.

(٤) أبو المحاسن: المنهل الصافي جـ ١ ورقة ٣١٩.

(٥) المقرئى: السلوك جـ ٣ القسم الثاني ص ٥٩٢ - ٥٩٣.

(٦) أبو المحاسن: المنهل الصافي جـ ١ ورقة ٣٢١.

وأرسله سحينا إلى الكرك^(١) على أن يلبغا بعد احتلاله للقلعة في جمادى الآخرة سنة ٧٩١هـ / يونيه ١٣٨٩م، غدا صاحب الأمر والنهي في شئون الدولة. وكان طبيعيا أن يعلن يلبغا نفسه سلطانا على عرش مضر باعتباره صاحب النصر على برقوق، ولكنه رفض وأيد أحقية الملك الصالح أمير حاج بن الأشرف شعبان في العودة إلى عرشه، ولقب بالملك المنصور بعد أن كان يلقب بالصالح في سلطته الأولى^(٢).

وهكذا عاد عصر نفوذ الأمراء من جديد، وغدت السلطنة وظيفه اسمية في هذه الفترة، حيث أصبح يلبغا صاحب النفوذ المطلق في الدولة^(٣) غير أنه لم يقدر لسياسته النجاح خلال الفترة القصيرة التي سيطر فيها على شئون الدولة، فقد عمد منذ اللحظة الأولى إلى إعادة الضرائب التي أبطلها السلطان برقوق، مما كان سببا في استياء الجماهير منه^(٤)، كما أعطى أتباعه الإقطاعات الجيدة وقرهم منه، وأبعد حليفه منطاش وأتباعه ولم يعطهم من الإقطاعات إلا أقلها شأنًا^(٥) ولذا أخذ منطاش في التدبير ضده، وسرعان ما التقى الفريقان في منتصف شعبان سنة ٧٩١هـ / ١٣٨٩م، وانتهى الأمر بهزيمة يلبغا، ثم قبض عليه. وأرسل سحينا إلى الإسكندرية^(٦)، وغدا منطاش صاحب السلطة الفعلية بعد أن صار أتابكا عوضا عن يلبغا، على أن سوء الحظ لازمه في هذه الآونة، فقد اندلعت الثورة ضده بالشام غضبا لما فعله بيلبغا الناصري^(٧).

(١) ابن حجر: تاريخ المائة التاسعة ورقة ٧، السعوى: الذيل التام على دول الإسلام، حوادث سنة ٧٩١هـ.

(٢) ابن دقمان: الجواهر الثمين جـ ٢ ورقة ١٨٦، أبو المحاسن: المنهل الصافي جـ ١ ورقة ٣٢٣.

(٣) ابن حجر: إنباء الغمر جـ ١ ص ٣٦٨.

(٤) ابن الصيرفي: نزهة النفوس جـ ١ ص ٢١٧.

(٥) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة جـ ١١ ص ٣٣٦.

(٦) أبو المحاسن: المنهل الصافي جـ ١ ورقة ٣٢٤.

(٧) ابن خلدون: العبر جـ ٥ ص ٤٨٨، ابن حجر: إنباء الغمر جـ ١ ص ٣٧٦.

كما تمكن برقوق من خروجه من سجنه بالكرك، بمساعدة نائبها حسن الكُجُكُنِي^(١)، عملاً بوصية يلبغا الناصري، وكان قد «أمره إن سمع شيئاً من أمر منطاش أو تحركه فيبادر بالإفراج عن الظاهر»^(٢).

على أن الظروف ساعدت برقوق في هذه الآونة، إذ بايعه أهل الكرك في تاسع رمضان سنة ٧٩١هـ / ١٣٨٩م^(٣).

وظل برقوق ينتقل من نصر إلى نصر، وفي كل مرحلة من مراحل انتصاره، كانت تفتد إليه جموع كثيرة تلتف حوله من العربان والتركمان مؤيدة له. وفي القاهرة دعر منطاش لهذه الأنباء، وحين أحس بالخطر يتهدده عقد اجتماعاً ضم الخليفة المتوكل والعلماء والقضاة، وحاول إثارتهم ضد برقوق بأنه في سلطنته السابقة خلع الخليفة المتوكل والسلطان وأخذ أموال الناس بالباطل، ثم استصدر منهم فتوى بإعلان الجهاد ضد برقوق^(٤).

وسرعان ما جمع منطاش جيشاً كبيراً وزحف به إلى الشام، وهناك التقى الفريقان في معركة طاحنة في المحرم من عام ٧٩٢هـ / ١٣٨٩م^(٥). وهيات الظروف الحسنة الفرصة لبرقوق، حيث تمكن من أسر الخليفة والسلطان وكبار الأمراء الذين رافقوا جيش منطاش^(٦)، مما كان له أكبر الأثر في نفوس رجال منطاش، والتعجيل بإحلال الهزيمة بهم، حتى إن كثيراً ممن كان معه بدءوا يتسللون للانضمام إلى الظاهر برقوق^(٧).

(١) ابن دقماق: الجواهر الثمين جـ ٢ ورقة ١٨٨.

(٢) ابن الصيرفي: نزهة النفوس جـ ١ ص ٢٢٦.

(٣) ابن حجر: إنباء الفجر جـ ١ ص ٣٧٤.

(٤) المقرئزي: السلوك جـ ٣ القسم الثاني ص ٦٧٠.

(٥) ابن دقماق: الجواهر الثمين جـ ٢ ورقة ١٨٩، أبو المحاسن: المنهل الصافي جـ ١ ورقة ٣٢٥.

(٦) ابن حجر: إنباء الفجر جـ ١ ص ٣٩١.

(٧) أبو المحاسن النجوم الزاهرة جـ ١١ ص ٣٦٩.

وفى الحال عقد برقوق اجتماعا ضم الخليفة والقضاة والأمراء وأعلنوا فيه تنازل السلطان حاجى لبرقوق عن السلطنة^(١).

أما منطاش فقد فر بمن بقى معه إلى دمشق للاحتماء بها، وحين أراد برقوق تتبعه منعه من ذلك أمراؤه وقالوا له: «أنت سلطان مصر أم سلطان الشام؟ امض إلى مصر واجلس على تخت الملك، فتصير الشام وغيرها في قبضتك» فأعجب برقوق هذا الرأى، وسار مسرعا إلى القاهرة ومعه الملك المنصور والخليفة والقضاة^(٢).

ولم يكذب يعلن نبأ اقترابه من القاهرة، حتى تحولت المدينة إلى أفراح وقيأت الجماهير لاستقباله^(٣)، وعندما وصل إلى القاهرة احترق شوارعها إلى القلعة فى موكب شعبى حافل^(٤)، وفى القلعة جددت البيعة لبرقوق^(٥).

كما أنه سمح للمنصور حاجى بالإقامة فى القلعة، وقد ظل مقيما بها إلى نهاية حياته^(٦).

وهكذا عاد السلطان برقوق إلى عرشه مرة ثانية فى ١٤ من صفر سنة ٧٩٢هـ / يناير ١٣٩٠م وامتدت سلطته الثانية حتى سنة ٨٠١هـ / ١٣٩٩م^(٧). وقد امتازت هذه المرحلة بجهوده المتواصلة فى تثبيت دعائم حكمه، فقرر أن يتخلص أولا من خصومه وعلى رأسهم منطاش الذى تركه فى دمشق حين عودته إلى القاهرة، ذلك أن بقاء منطاش بدمشق مستقلا جعل أمره يقوى فى الشام بأصرة.

(١) ابن دقمان: الجوهر الثمين جـ ٢ ورقة ١٨٩، ابن حجر: نفس المصدر والجزء - ص ٣٩٢.

(٢) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة جـ ١١ ص ٣٧١.

(٣) المقرئى: السلوك جـ ٣ القسم الثانى ص ٧٠٣.

(٤) ابن إياس: جـ ١ القسم الثانى ص ٤٣٠ - ٤٣١.

(٥) ابن الصيرفى: نزهة القوس جـ ١ ص ٢٩٥.

(٦) أبو المحاسن: المصدر السابق جـ ١٢ ص ٤.

(٧) ابن شاهين الملقبى: نزهة الأساطين فى مصر من السلاطين ورقة ١٨.

وبدا لبرقوق أن يستعين بالمماليك اليلبغاوية في قتال منطاش ومن معه من الأشرافية، بسبب العداء المستحکم بين الفريقين وأن يجني ثمار النصر عن طريق اليلبغاوية، حين يتيح لهم الفرصة ليأخذوا بثأرهم من منطاش، ولذلك أمر بالعفو عن الأمراء اليلبغاوية الذين سجنهم منطاش بالإسكندرية في الفترة التي حكم فيها مصر، وعلى رأس هؤلاء الأمراء يلغا الناصري الزعيم اليلبغاوي الذي كان قد اغتصب السلطنة من برقوق وسجنه بالكرك^(١).

وحين حضر اليلبغاوية إلى برقوق نزع على عدد منهم وأقرهم نوابا بالشام، كما عين يلغا في وظيفة مقدم للجيوش المتوجهة لقتال منطاش، واستحثه على الأخذ بثأره من منطاش قائلا له: «هو غريمك، اعرف كيف تقاتله»^(٢).

غير أن الحوادث أثبتت عكس ما كان يتوقعه برقوق، فقد دأب يلغا على مساعدة منطاش سرا، وحين استوثق برقوق من ذلك قبض على يلغا وهو بجلب وقتله سنة ٧٩٣هـ / ١٣٩١م^(٣).

وظلت قوات برقوق تطارد منطاشا مدة طويلة، وانتهى الأمر بقتله في حلب سنة ٧٩٥هـ / ١٣٩٣م^(٤).

على أن المتاعب والثورات التي واجهها برقوق في سلطنته الثانية لم تكن كلها من جانب الترك، وإنما لازمها ثورات العربان في مصر والشام.

• وكان أهم هذه الثورات هي ثورة الشريف العنابي بمصر سنة ٧٩٦هـ / ١٣٩٤م بالاشتراك مع موسى بن محمد شيخ العربان بالكرك، وتم الاتفاق بينهما على تنفيذ الخطة بعد خروج السلطان برقوق إلى دمشق لمحاربة تيمور لك، غير

(١) ابن دقماق: الجواهر الثمين جـ ٢ ورقة ١٩٠، ابن إياس: بدائع الزهور جـ ١ القسم الثاني ص ٤٣٥.

(٢) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة جـ ١٢ ص ٩.

(٣) ابن دقماق: الجواهر الثمين جـ ٢ ورقة ١٩١، ١٩٢.

(٤) ابن حجر: إنباء الغمر جـ ١ ص ٤٥٢، ابن إياس: بدائع الزهور جـ ١ القسم الثاني ص ٤٦٠.

أن السلطان برقوق تمكن من كشف المؤامرة، وقبض على الشريف العنابى وشريكه وجسهما حتى ماتا^(١).

وقد ظل برقوق يقظا لكل ما يحاك من مؤامرات حتى سكنت أصوات الترك، كما أنه ظل متتبعا لحركات العربان مواجهها لهم فى شجاعة وبأس حتى كسر شوكتهم، وتكاد السنوات الأخيرة من حكمه تخلو من الثورة أو العصيان.

على أن الأمر الذى يسترعى النظر أنه لم تأت سنة ٨٠١هـ / ١٣٩٩م وهى السنة التى توفى فيها السلطان برقوق، حتى كان كل نواب الشام وأرباب الوظائف بمصر من مماليك السلطان برقوق ومشترواته من الجراكسة^(٢)، وهو الأمر الذى كان له أكبر الأثر فى تثبيت دعائم الحكم فى سلطنة برقوق الثانية.

وعلى الرغم من الحروب والفتن التى سادت حكم السلطان برقوق لفترات طويلة، فإن ذلك لم يشغله عن القيام بالعديد من الإصلاحات الداخلية التى كان لها أكبر الأثر فى تدعيم كيان دولته، فألغى كثيرا من الضرائب التى كانت تعانى منها الجماهير^(٣)، كما أقام جسرا على النيل بين جزيرة أروى (الزمالك) وبين جزيرة الروضة من طرفها البحرى، وهو عمل عجز عنه كثير من الحكام السابقين، وقد عم النفع بهذا الجسر، فيسر للناس الحصول على الماء كما يسر لهم ركوب المراكب من القاهرة وغير ذلك^(٤)، وأصلح خزائن السلاح بثغر الإسكندرية، وسور مدينة دمنهور لحمايتها من هجمات العربان^(٥)، كما عمر الجبال الشرقية بالفيوم بالناس ليقبها من هجمات البدو، وعمّر زاوية البرزخ بدمياط^(٦)، كما قام بتحديد عمارة القناة التى تحمل مياه النيل إلى قلعة الجبل، وأصلح الميدان تحت

(١) ابن حجر: إنباء الغمر جـ ١ ص ٤٧٠ - ٤٧١.

(٢) أبو المحاسن: المنهل الصافى جـ ١ ورقة ٣٣٠.

(٣) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة جـ ١٢ ص ١١٠.

(٤) المقرئى: المواعظ والاعتبار جـ ٢ ص ١٦٩.

(٥) أبو المحاسن: المنهل الصافى جـ ١ ورقة ٢٣٢.

(٦) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة جـ ١٢ ص ١١٣ - ١١٤.

القلعة، وزرع به بعض النباتات كما غرس فيه النخيل، وبنى صهريجاً للماء، كما بنى مكتبا يقرأ فيه أيتام المسلمين القرآن الكريم بقلعة الجبل، وجعل عليه وقفاً، كذلك أقام طاحونة بالقلعة، وسيلا تجاه باب دار الضيافة وتجاه القلعة^(١).

ولم تكن عناية برقوق في هذا الشأن مقصورة على مصر وحدها، بل تعدتها إلى المدينة المنورة وأمهاة مدن الشام، فبنى بركة في طريق المدينة المنورة يردها الحاج^(٢)، كما قام بعدة إصلاحات بالحرم النبوي^(٣)، كذلك أنشأ جسراً على ضفة نهر الأردن بالغور طوله مائة وعشرون ذراعاً في عرض عشرين، وانتفع به المسافرون كثيراً^(٤)، كما اهتم السلطان برقوق بالعلم فبنى مدرسته بين القصرين، وجعل بها سبعة دروس قام بتدريسها علماء على المذاهب الأربعة، ثم جعل بها درساً للتفسير، ودرساً للحديث، وآخر للقراءات^(٥)، غير أنه يؤخذ عليه شراسته في جمع المال الأمر الذي جعله يكثر من مصادرات الوزراء والولاة والكشاف وغيرهم من أرباب الوظائف^(٦).

ثانياً: حكومة السلطان فرج بن برقوق:

(٨٠١ - ٨١٥ هـ = ١٣٩٩ - ١٤١٢ م)

حين مرض السلطان برقوق مرض الموت وأحس بدنو أجله في شوال سنة ٨٠١ هـ / يونية ١٣٩٩ م، استدعى الخليفة المتوكل والقضاة والأمراء، وطلب منهم أن يحلفوا على السلطنة لأولاده من بعده، وهم: فرج وعبد العزيز وإبراهيم، فحلف جميعهم على ذلك، كما شكل برقوق مجلساً للصياغة على أبنائه وجعل

(١) أبو المحاسن: نفس المصدر والجزء ص ١١٥، ابن الصيرفي: نزهة النفوس ج ١ ص ٥٠٢.

(٢) ابن إياس: بدائع الزهور ج ١ القسم الثاني ص ٥٣٣.

(٣) الفاسي: العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين ج ٣ ص ١٩٦.

(٤) ابن إياس: بدائع الزهور، ج ١، القسم الثاني، ص ٥٥٣، المقدسي نزهة الناظرين، ورقة ٥١.

(٥) ابن حجر: إنباء الغمر ج ٢ ص ٦٨، أبو المحاسن: النجوم الزاهرة ج ١٢ ص ١١٣.

(٦) ابن الصيرفي: نزهة النفوس ج ١ ص ٥٠٠.

رئاسة هذا المجلس للأمير الكبير أَيْتَمُش البَحَّاسِي أتابك العساكر وأن يكون الخليفة مساعدا له مع بقية الأمراء^(١).

ولم يلبث برقوق أن توفي في نفس اليوم الذي تم فيه اختيار أعضاء مجلس الوصاية على أبنائه، وذلك في ليلة الجمعة ١٥ من شوال سنة ٨٠١هـ / يونية ١٣٩٩م، وقد تجاوز عمره الستين^(٢)، والواقع أنه لم يجرؤ أحد في الاجتماع الذي عقده برقوق أن يعترض على مبدأ الوراثة، وإن كانت الحوادث قد أظهرت فيما بعد بطلان هذا المبدأ.

على أنه إذا كان هذا المبدأ قد طبق بإصرار في دولة بني قلاوون حتى نهاية الدولة المملوكية الأولى، فإنه لم يعد له مكان في الدولة المملوكية الثانية فيما بعد^(٣)، بل غدت السلطنة حقا مشاعا للأمير القوي، وصار استمرار السلطان في الحكم أو وثوبه إليه يتوقف على مدى مهارته الحربية، وعلى الكثرة العددية من الأعوان والأنصار، فضلا عما يتصف به من مهارة دبلوماسية، ومهما يكن من أمر فقد ولي فرج العرش في ١٥ من شوال سنة ٨٠١هـ / يونية ١٣٩٩م، بوصية من أبيه ولم يتجاوز من العمر عشر سنوات^(٤)، ووجد الأمراء أن الفرصة سانحة للتسابق على إظهار نفوذهم ما دام السلطان طفلا، وسرعان ما بدأت المنافسات والمؤامرات تأخذ طريقها في الأيام الأولى من سلطنة فرج، حيث امتنع الأمير سودون أمير آخور، عن حضور الاجتماع المقرر للأمراء مع السلطان بالقلعة، فقبض عليه وسجن بالإسكندرية^(٥).

(١) المقرئزي: السلوك جـ ٣ القسم الثاني ص ٩٣٦ - ٩٣٧.

(٢) ابن إياس: بدائع الزهور جـ ١ القسم الثاني ص ٥٢٦.

(٣) حكيم أمين: قيام دولة المماليك الثانية ص ١٠٨.

(٤) أبو المحاسن: المنهل الصافي جـ ٢ ورقة ٥٠٧، ابن شاهين الملطى: نزهة الأساطين فيمن ولي مصر من السلاطين ورقة ١٨.

(٥) المقرئزي: السلوك جـ ٣ القسم الثالث ص ٩٦٢، ابن الصيرفي: نزهة النفوس جـ ٢ ص ١٠ -

على أنه لم تكد تمضى بضعة شهور على تكوين مجلس الوصاية حتى دبت بين أعضائه روح الخلاف والاستتار بالنفوذ، إذ ما لبث أن ثار أحد أعضاء مجلس الوصاية في أوائل سنة ٨٠٢هـ / ١٤٠٠م، وهو الأمير تَمَّ نائب الشام، وانضم إليه نواب صفد وَحَمَاة وحلب وطرابلس^(١).

وفي الوقت نفسه قام الأمير يَشْبُك الخازندار — العضو بمجلس الوصاية أيضاً — بتدبير مؤامرة ضد الأمير أَيْتَمَش الأتابك ورئيس المجلس، لتجريدته من نفوذه، إذ أقنع السلطان الطفل أن يطلب من أيتمش ترشيده، لأنه صار في غير حاجة إلى وصاية، ونجح يشبك في ذلك كما نجح في طرد أيتمش من القلعة فسكن بعيداً عنها^(٢).

غير أن أتباع أيتمش لم يرضوا بهذا الإجراء، وحنقوا على يشبك وأنصاره، ف وقعت الحرب بين الفريقين وانتصر فيها يشبك سنة ٨٠٢هـ / ١٤٠٠م، وفر أيتمش بمن بقى معه إلى الشام، وهناك انضم إلى الثائرين ضد السلطان^(٣)، وما لبث السلطان فرج أن خرج على رأس جيش قوى لقمع الثوار، وتمكن من إخماد الثورة كما تم له القبض على تنم وأيتمش ثم قتلهما^(٤).

ورغم القضاء على هذه الثورة الخطيرة فإن السلطان فرج لم يعد يستشعر الأمان من جانب الجراكسة، وبدا له أن يعمل على تقريب الماليك الروم منه ويعتمد على عصبيتهم له، لأن أمه خُونْد شِيرِين كانت رومية^(٥)، وعرف عنها التدخل في الأمور السياسية لمساعدة بني جنسها والتعصب لهم^(٦).

(١) ابن إياس: بدائع الزهور جـ ١ القسم الثاني ص ٥٥٥.

(٢) أبو المحاسن: المنهل الصافي جـ ٢ ورقة ٥٠٧، السخاوي: الضوء اللامع جـ ١١ ص ٢٧٨.

(٣) ابن إياس: بدائع الزهور جـ ١ القسم الثاني ص ٥٥٨ - ٥٥٩.

(٤) ابن حجر: إنباء القمر جـ ٢ ص ١٠٠ - ١٠٣.

(٥) المقرئ: السلوك جـ ٣ القسم الثالث ص ١١٧٧، السخاوي: الضوء اللامع جـ ١٢ ص ١٩.

(٦) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة جـ ١٢ ص ٢١٣.

على أن ميل السلطان فرج إلى الروم جعل الجراكسة يشعرون بالخطر على وجودهم، وَيَحْتَفُونَ على فرج، الأمر الذي دفعهم إلى تولية لاجين بن عبد الله الجركسى، أقدم أمير جركسى بينهم^(١)، غير أن المؤامرة اكتشفت قبل تنفيذها، وقبض على لاجين سنة ٨٠٣هـ / ١٤٠١م^(٢).

ولم يلبث كبار الأمراء الجراكسة بالشام أن أعلنوا الثورة على السلطان سنة ٨٠٧هـ / ١٤٠٤م وهم الأمير جكّم نائب دمشق، وشيخ المحمودى نائب طرابلس وَيَشْبِكُ الشعبانى الخازندار، وزحفوا بجيوشهم إلى القاهرة لخلع السلطان، وفى الطريق عند السعيدية^(٣) دارت بين الفريقين معركة طاحنة فر على أثرها السلطان بمن معه إلى القاهرة، كما وقع الخليفة والقضاة أسرى فى يد الثوار^(٤).

وفى القاهرة تهاى السلطان للقاء الثوار القادمين فى أثره، والتقى الفريقان مرة أخرى بالقرب من قلعة الجبل، وكاد الثوار أن يستولوا على القلعة، غير أن حسن الحظ لازم السلطان فى هذه المعركة، إذ دب الخلاف بين الثوار، وبدأ كثير من أمرائهم فى التسلل للانضمام إلى السلطان فرج^(٥)، وإزاء هذا لم يكن فى وسع زعماء الثورة سوى الفرار. بمن بقى معهم إلى الشام^(٦) وهكذا لم يقدر للأمير حكم أن يخلع السلطان ليتولى هو بدوره السلطنة فى مصر، والواقع أن الهدف من وراء هذه الثورات جميعها هو إقصاء فرج عن العرش، وتولية أمير جركسى يحيز لبني

(١) ابن حجر: تاريخ المائة التاسعة لوحة ٥٤، أبو المحاسن: المصدر السابق جـ ١٣ ص ٢٧.

(٢) ابن إياس: بدائع الزهور ج ١ القسم الثانى ص ٦٢٧.

(٣) السعيدية: من القرى القديمة التى اندثرت، وكانت تقع بأراضى ناحية العباسية بين بليس والخطارة بالشرقية، كما كانت ضمن مراكز البريد فى طريق الشام، و«أسمائها الظاهر بيبس البندقدارى السعيدية نسبة إلى ولده السعيد محمد بركة خان»، القلقشندى: صبح الأعشى جـ ١٤ ص ٣٧٧، المقرئى: المواظ والاعتبار جـ ٢ ص ٣٠٣، محمد رمزى: القاموس الجغرافى جـ ١ القسم الأول ص ٧٠.

(٤) المقرئى: السلوك جـ ٣ القسم الثالث ص ١١٦٢ - ١١٦٣.

(٥) ابن حجر: إنباء الغمر جـ ٢ ص ٢٩٣.

(٦) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة جـ ١٢ ص ٣٢٠.

جنسه ولا يقدم عليهم غيرهم من الطوائف المملوكية الأخرى، كما كان يفعل برقوق في سلطته.

ومهما يكن من أمر فقد استمر فرج في سياسة تقريه للماليك الروم على حين لم يثن عزم الجراكسة عن تدخلهم في سياسته مطالبين إياه بتغيير سياسته نحو الأمراء الروم.

وما لبث الموقف أن انفجر بين السلطان وبينهم حين طلبوا منه القبض على أمراء الماليك الروم وإبعادهم لئلا يستأثروا بالسلطة من دولهم، كما أتموه بتعمد الإعراض عنهم وتواطئه مع الأمراء الروم ضدهم، غير أنه أبى الاستجابة لمطالبهم، وإذا تأكدوا من إصراره على موقفه ثاروا ضده وأضربوا عن الخدمة السلطانية^(١)، في حين تكفل عدد منهم أمام القلعة لمنع من يقصد إليها لمقابلة السلطان^(٢)، وعلى حين تطورت الأمور إلى هذا الحد، اجتمع به بعض الأمراء ليصلح الأمر، فلم يتمكن، وأصر الجراكسة على إبعاد الروم، ولم يسع السلطان إلا الرضوخ لمطلبهم، فبعث إليهم بالأمير تغرى بردى والامير أرغون، فقبضوا عليهما، وبعثوا بالأمير تغرى بردى منفياً إلى القدس^(٣)، ورغم أن السلطان كان يقصد إخماد الفتنة ريثما تتاح له فرصة القضاء على زعماء المعارضة، إلا أنهم «عادوا إلى ما هم عليه من الخلاف بعد قليل»^(٤).

ويبدو وكأن السلطان أحس بثقل وطأة الجراكسة عليه، كما بدأت تساوره المخاوف والشكوك، وحين أحس الجراكسة بحالة القلق المسيطرة عليه «دسوا إليه سعد الدين بن غراب كاتب السر، فخيله منهم حتى امتلأ قلبه خوفاً، فلما علم ابن غراب بما هو فيه من الخوف، حسن له أن يفر فمال إليه»^(٥).

(١) المقرئى: السلوك جـ ٣ القسم الثالث ص ١١٧٤.

(٢) ابن إياس: بدائع الزهور جـ ١ القسم الثاني ص ٧٣٢.

(٣) المقرئى: نفس المصدر والجزء ص ١١٧٦.

(٤) ابن إياس: بدائع الزهور ٥ جـ ١، القسم الثاني، ص ٧٣٣.

(٥) المقرئى: السلوك جـ ٣ القسم الثالث ص ١١٧٧.

وما لبث السلطان أن هجر القلعة وترك العرش في ربيع الأول سنة ٨٠٨هـ / ١٤٠٥م واحتفى في بيت سعد الدين بن غراب^(١).
على أن الأمور لم تكن مهيأة لترشيح أى من الأمراء للسلطنة في هذه الأثناء، وذلك لوجود الخلاف بين الحزب الذى يتزعمه الأمير يشبك الشعباني الدوادار، وبين الحزب الآخر الذى يتزعمه الأمير بيبرس الأتابك قريب السلطان.
ولم يكن في وسع القوى المتصارعة إلا أن تضع محل السلطان فرج أخاه عبد العزيز وذلك إنقادا للموقف من كارثة محققة.
فكان أن بايعه الأمراء بالسلطنة في الخامس والعشرين من ربيع الأول سنة ٨٠٨هـ / فبراير سنة ١٤٠٥م^(٢).

على أنه لم يكن له في السلطنة غير مجرد الاسم، والمتصرف في شئون الدولة بيبرس الأتابك زعيم الحزب المناوئ للجراكسة الذين يتزعمهم يشبك الشعباني الدوادار.

واعتقد الجراكسة أن سلطنة عبد العزيز ربما أتاحت لهم فرصة التخلص من نفوذ الأمراء الروم أو إضعاف سيطرتهم.
ولكن سرعان ما استبد بالأمور من دونهم بيبرس الأتابك و «قويت شوكته على يشبك... فعز عليه وعلى أصحابه ذلك»^(٣).

وبدا ليشبك هو وأتباعه أن يعملوا على عودة فرج ثانيا للقضاء على نفوذ بيبرس وأتباعه، وكان لدى يشبك علم بوجود فرج عند ابن غراب، ولذلك أخذوا يمهّدون لعودته إلى العرش بالاتفاق سرا مع ابن غراب، الذى رسم لهم

(١) أبو المحاسن: المنهل الصافي جـ ٢ ورقة ٥١٦، ابن شاهين الملطى: نزهة الأساطين فيمن ولى مصر من السلاطين ورقة ١٨.

(٢) ابن الصرفى: نزهة النفوس جـ ٢ ص ٢١٢. ابن إياس: بدائع الزهور جـ ١ القسم الثانى ص ٧٣٥.

(٣) ابن إياس: بدائع الزهور جـ ١ القسم الثانى ص ٧٤١.

بدوره خطة رجوع فرج إلى العرش، وتتلخص هذه الخطة في «أنه يُخرج إليهم السلطان، ويعيدوه إلى الملك، ليتفردوا بتدبير الأمور»^(١).

وبعد قتال نشب بين أنصار فرج وبين أنصار أخيه عبد العزيز، تمكن يشبك الشعباني من الانتصار على بيبرس الأتابك وتم القبض عليه، وعاد فرج إلى العرش مرة ثانية في ليلة الخامس من جمادى الآخرة سنة ٨٠٨هـ / ١٤٠٥م^(٢). وأصبح يشبك الشعباني أتابكا عوضا عن بيبرس، كما رُقي أتباع يشبك إلى إمريات مختلفة.

على أن الفترة الثانية من سلطنة فرج والتي استمرت نحو من سبع سنوات (٨٠٨ - ٨١٥هـ = ١٤٠٥ - ١٤١٢م) اتصفت بالاضطراب وسوء التدبير، فقد استهلها فرج بقتل أخويه^(٣).

كما كثرت الفتن والمؤامرات في الشام، فثار الأمير حكيم نائب حلب في جمادى الثانية سنة ٨٠٩هـ / ١٤٠٧م، وبويع بالسلطنة ولقب بالملك العادل، كما ضربت السكة باسمه، وخطب له في حلب، وأطاعه جميع النواب بالشام وخطب له بها كذلك^(٤).

غير أن سلطنة حكيم لم تستمر أكثر من خمسة أشهر، حيث لقي مصرعه في إحدى المعارك مع التركمان^(٥).

لم يتمكن فرج من إخضاع بلاد الشام بعد ذلك، فسرعان ما تحالف توروز نائب دمشق وشيخ نائب طرابلس، وأعلنا استقلالهما بالبلاد الشامية سنة ٨١٠هـ / ١٤٠٧م، وبذلك خرجت النيابات الشامية مرة أخرى عن طاعة

(١) المقرئى: السلوك جـ ٤ القسم الأول ص ٨.

(٢) ابن إياس: المصدر السابق ص ٧٤٠.

(٣) ابن حجر: إنباء الغمر جـ ٢ ص ٣٥٢، ابن الصيرفي: نزهة النفوس جـ ٢ ص ٢٢٦.

(٤) ابن حجر: نفس المصدر والجزء ص ٣٥٦، أبو المحاسن: المنهل الصافي جـ ٢ ورقة ٥١٦.

(٥) المقرئى: السلوك جـ ٤ القسم الأول ص ٤٥ - ٤٦.

السلطان، وعلى الرغم من أن السلطان فرج كان يقود الحملات إلى الشام كل عام ليستعيد نفوذه فيها، فقد ظلت في قبضة نُورُوز حتى نهاية حكم فرج^(١). ومهما يكن من أمر فقد اضطربت أحوال مصر نتيجة تكرار هذه الحملات التى تعود في كل مرة دون أن تحقق الغرض منها.

كذلك اضطربت أحوال السلطان في الفترة الأخيرة من حكمه، وانقلب على الجراكسة ممالك أبيه فقتل منهم في يوم واحد مائة جركسى في شوال سنة ٨١٤هـ/ ١٤١١م^(٢).

وبالرغم من اضطراب الأمور على هذه الصورة فإنه قرر الخروج في هذه الأثناء لقمع اللاتنين بالشام.

وقبل أن تغادر جيوشه القاهرة دعاه سوء تدبيره إلى تعقب الجراكسة مرة أخرى، ظنا منه أن في إزالتهم توطيدا لدعائم ملكه، فأعمل فيهم وفي أمرائهم القتل، حتى بلغ عدد من قتل في هذه الفترة نحواً من سبعمائة رجل^(٣).

وبدا كأنما الأحوال وقتئذ تنذر بزوال حكم هذه الدولة وتمهد للفتات الطامعة في السلطنة أن تصل إليها، إذ فضلاً عن سوء الحكم فإن الوباء والقحط الذى انتشر في عهد السلطان فرج جعل الناس يثمنون زوال سلطنته، كما أن الإقدام على قتل الجراكسة بهذه الكثرة وهم عماد الدولة، كان في الحقيقة من أعظم الأسباب في زوال دولة الناصر فرج^(٤).

ولذا عندما غادرت جيوشه القاهرة، تسلل منهم عدد كبير بسبب سوء معاملته لهم وانضموا للاتنين بالشام، كما أعلن عدد من الأمراء العصيان وانضموا إلى زعماء الثورة بالشام^(٥)، ثم تقدم هو بمن بقى معه والتقى بالثوار بالقرب من

(١) ابن طولون: إعلام الورى ص ٣٧ - ٣٨.

(٢) المقرئى: السلوك جـ ٤ القسم الأول ص ١٩٢.

(٣) ابن حجر: إنباء الغمر جـ ٢ ص ٤٨٩ - ٤٩٠.

(٤) ابن حجر: إنباء الغمر جـ ٢ ص ٤٩٠ أبو المحاسن: المنهل الصاق جـ ٢ ورقة ٥١٩.

(٥) المقرئى: السلوك جـ ٤ القسم الأول ص ١٩٩ - ٢٠٠.

دمشق، وسرعان ما حلت به الهزيمة وقبض عليه ثم قتل في شهر صفر سنة ٨١٥هـ / ١٤١٢^(١).

وبذلك زالت دولة الناصر فرج وانتقلت السلطة إلى السلطان المؤيد شيخ الحمودى.

(١) العيني: السيف المهند في سيرة الملك المؤيد ص ٢٥٩ - ٢٦٠، ابن شاهين اللطى: نزهة الأساطين فيمن ولى مصر من السلاطين ورقة ١٨.